الانسان والعالم
فى نظر الراغب الأصفهانى

ما الإنسان ؟ ولماذا وجد على ظهر الأرض ؟ وما الغاية من حياة الإنسان ؟ وما مصير العالم ؟ وما صلة الفرد بالمجتمع ؟ هذه كلها أسئلة تطوف بذهن كل شخص اليوم ، وطافت بأذهان الناس منذ عرفوا التفكير ، وسوف يعرضها الإنسان لنفسه فى المستقبل ما دامت الحياة موجودة .

وإذا كان العلم الحديث قد سجل تقدماً عظيماً منذ القرن الماضى ، إذ أصبحت علوم الأقدمين مما لا يؤبه لها ولا يعتد بها ، فإن الأخلاق أو العلم بما يجب أن يكون عليه سلوك الإنسان ، والفلسفة وهى العلم بالأسباب الأولى والغايات الأخيرة من الحياة ، لم يتقدما كثيراً عما وصل إليه القدماء . ونقصد بالعلم الحديث علوم الطبيعة والحياة ، وهى التى تعتمد على مشاهدة الظواهر الكونية وتسجيلها واستنباط القوانين التى تحكمها ثم تسخيرها لمصلحة الإنسان .

وقد لا يخلو من فائدة أن نرجع إلى آراء المفكرين الذين نظروا فى مسائل الأخلاق والفلسفة ، وهى مسائل أصبحت شبه ثابتة فى تاريخ البشر . ومن الخير لنا فى نهضتنا الحديثة أن نلتفت إلى الوراء قليلاً لنشهد آثار أعلام الفكر من العرب والمسلمين .

وأحد هؤلاء الأعلام الذين لم يلتفت إليهم كثير من المحدثين فيما أعتقد : أبو القاسم الحسين بن محمد بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى .

١

كان العصر الذى يعيش فيه الراغب الأصفهانى ، وهو القرن الخامس الهجرى إذا تجاوزنا عن السنتين اللتين قضاهما فى مستهل القرن السادس ، كان عصراً

زاهراً من الناحيتين العلمية والأدبية ، ولو أنه كان متأخراً سياسيا . فمنذ القرن الرابع ، بل قبل ذلك أيضا ، انحلت الخلافة العباسية ، هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف ، المتسعة النواحى ، فقام على أنقاضها دويلات كثيرة فى شتى الجهات ، نفوذ الأمراء فيها هو النفوذ الأول ، ولم يبق للخليفة فى بغداد إلا الاسم . وكانت الدولة الفاطمية فى مصر هى صاحبة السلطان .

وظهرت على المسرح الإسلامى ألوان من الثقافات المتعارضة فى أصولها ، بعضها عن الهند ، وبعضها الآخر عن الفرس ، وبعضها الثالث عن اليونان . ونحن نعلم أن الترجمة بدأت منذ القرن الثانى ، واستمرت قوية طول القرن الثالث ، وأثمرت فى القرن الرابع ، الذى يعد بحق أزهى عصور المسلمين حضارة . ولم يكن من السهل أن تصهر هذه الألوان المختلفة من الثقافات فى بوتقة الإسلام ، فلم يكن من الغريب أن تقرأ لابن مسكويه مثلا فى القرن الرابع كلاماً فلا تشك أن كاتبه يونانى إلى جانب آراء مستمدة من الشريعة الإسلامية الخالصة . كان الإسلام حديث عهد بهذه الأفكار الغريبة عنه . فإذا بلغنا القرن الخامس رأينا هذه الأفكار الغريبة أصبحت مألوفة ، وعاشت فى صحبة ومودة مع الأفكار الإسلامية الصميمة ، وامتزجت آراء الفرس والهند واليونان بشريعة المسلمين امتزاجاً لا تحس معه تلفيقاً أو توفيقاً ، مما تجده ظاهراً عند أولئك الذين ألفوا فى القرن السابق .

على أن المقدرة على تمثيل المعلومات المختلفة لا تتوقف على الزمن وحده ، بل على حرية الكاتب ونفاذ فكره وقدرته التركيبية التى ينظر منها إلى الحياة . وهناك مؤلفون عاشوا بعد الراغب ، واستفادوا من كتبه ، ومع ذلك لم يكونوا قادرين على هضم أو تمثيل الآراء الصادرة عن بيئات مختلفة . ومن هؤلاء الغزالى ، حجة الإسلام الذى نال شهرة عظيمة لا يزال يتمتع بها حتى الآن ، فإنك تجد فى أغلب مؤلفاته الأخلاقية كالإحياء فصولا غريبة كل الغرابة عن الروح الإسلامى ، وتحس وأنت تقرؤها أنك قد انتقلت من جو إلى آخر ، ومن أسلوب إلى أسلوب .

وليس الأمر كذلك مع الراغب الأصفهانى ، لأنه لم يبتغ شهرة ، ولم يطلب قرباً من ذوى النفوذ ، كما أنه أراد وقد أوشكت حياته على الفناء أن ينظر فى أمور هذا الإنسان ، وصلته بالعالم الذى يعيش فيه ، نظرة تجمع بين ما اطلع

عليه من فلسفة اليونان ، وحكمة الهند ، وأدب الفرس ، ودين المسلمين ، إلى خبرة واسعة وتجربة صادقة .

لهذا كله تجد فى كتاب الذريعة آيات من القرآن ، وأحاديث للرسول ، ومأثورات لعلى بن أبى طالب ، ولمحات من تفكير سقراط وأفلاطون ، إلى جانب أشعار تدل على قدم راسخة فى الأدب وذوق رفيع فى الفن .

ومن الواضح أن الراغب يقصد من تأليف هذا الكتاب نفع العامة أو الجمهور ، ولهذا نهج الأسلوب السهل . ومن اليسير أن نتصور الطبقات التى انقسم إليها المجتمع فى عصره ، فهم الأمراء ومن فى منزلتهم ، والعلماء ، والعامة . ولقد قسم الراغب المجتمع أقساماً مختلفة بحسب وجهات النظر ، فقال : الناس حزبان خاص وعام ، فالخاص من قد تخصص من المعارف بالحقائق دون التقليدات . والناس من وجه آخر ثلاثة ، خاصة وعامة وأوساط . فالخاص هو الذى يسوس ولا يساس ، والعام هو الذى يساس ولا يسوس ، والوسط هو الذى يسوسه من فوقه ، وهو يسوس من دونه . والناس من وجه آخر ثلاثة أحزاب ، أصحاب الشهوات ، وأصحاب الكرامة والرياسة ، وأصحاب الحكمة . ومن وجه آخر ، ملكى وشيطانى وإنسى . فالملكى الذى يستعمل القوة العاقلة بقدر جهده ، والشيطانى الذى يستعمل القوة الشهوية ، والإنسى الذى يخلط عملا صالحاً وآخر سيئاً .

وسواء أخذنا بتقسيمات الراغب ، أم بالتقسيم الذى اقترحته من قبل مما ينطبق على الواقع ويستمد منه ، فمن السهل علينا أن نتصور أن المؤلف سوف ينتصر لطبقة العلماء . ذلك أن المجتمع الإسلامى بدأ فى الانقسام إلى طبقات منذ القرن الأول الهجرى ، مع أن الإسلام فى جوهره دين الديمقراطية الصحيحة ، أو دين الطبقة الواحدة ، كما هو واضح من القرآن وهو الأصل الأول من أصول الدين ، ومن سيرة الرسول عليه السلام الذى كان يخصف نعله ويرقع ثوبه ، ويشارك قومه كبيرهم وصغيرهم فى كل شىء . ولما ظهرت طبقة الأمراء ، على الخصوص فى الدولة العباسية التى جرت فى ذلك على سنة الفرس ، كانوا يقدمون العلماء ، ونقصد بهم علماء الدين بطبيعة الحال ، ويقدمونهم عليهم ، وينزلون لهم عن الصدارة ؛ لأن الخلفاء والأمراء كانوا أنفسهم من العلماء الذين يعرفون للعلم حقه ويقدرون له منزلته . حتى إذا بدأ المجتمع فى الانحلال والفساد ،

نزلت درجة العلماء ، فاحتاج أحدهم وهو الراغب الأصفهانى أن يدافع عنهم ، وهو فى هذا الدفاع إنما يدافع عن نفسه أيضا . ولو كانت منزلة العلماء فى الدرجة الأولى كما كانت من قبل ، ما كان بالكتّاب حاجة إلى التنبيه على ذلك وإلى الدفاع عن أنفسهم .

قال الراغب فى خطبة الكتاب : « كن أيها الأخ عالماً ، وبعلمك عاملاً ، تكن من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . وقال : « واعلم أنه قبيح بذى العقل أن يكون بهيمة وقد أمكنه أن يكون إنساناً » . وقال : « وان أردت أن تعرف بقاء العلماء الأتقياء فاعتبر ما قال أمير المؤمنين على كرم الله وجهه : مات خزّان الأموال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقى الدهر » .

٢

لم وجد الإنسان وما غايته من الحياة ؟

هذه هى المسألة المشكلة حقاً . ولقد اختلفت إجابات الناس عنها باختلاف الأمم والعصور والثقافات . غير أن إحدى هذه الإجابات ما تجده عند أصحاب الديانات السماوية ، وما تجده فى الإسلام واضحاً لا سبيل إلى الشك فى تأويله .

فالغاية من خلق الإنسان عبادة الله ، وفى ذلك قال تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلاّ لِيَعْبُدُونِ » .

ولقد سادت فى هذا العصر الذى نعيش فيه موجة من الإلحاد أو الزندقة أو الشك ، فأنكر الناس أو شكوا فى وجود الله ، لأن إثباته لا يقوم على الأدلة العلمية المعتمدة على الملاحظة والتجربة . ومن الثابت أن أهل أوربا على الخصوص انصرفوا عن العبادة فى الكنائس ، وأن بعض الدول قامت تعارض الدين معارضة صريحة ، ونعنى روسيا السوفيتية بالذات . ولكن الحرب الأخيرة غيرت النفوس وحولت الناس من المادية المسرفة فى الإلحاد إلى شىء من الروحانية والإيمان بوجود قوة عليا تسير الكون : ولقد عادت روسيا السوفيتية إلى الاعتراف بالأديان .

لهذا السبب أحب أن أهمس فى آذان المعجبين بالحضارة الأوربية الحديثة أن يتمهلوا فلا تبهرهم بما فيها من بريق يخدع البصائر والأبصار ، وعليهم أن

يلتفتوا قليلا إلى القدماء فقد يجدون عندهم شيئاً يقنعهم ويغذى نفوسهم.

قال الراغب إن الإنسان وجد لثلاث : لعمارة الأرض فى قوله تعالى « واستعمركم فيها » . وعليه تحصيل ما به تزجية المعاش لنفسه وغيره . والثانى لعبادة الله . والثالث خلافة الله فى الأرض ، كما قال تعالى « وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ » . وخلافة الله فى الأرض هى الاقتداء بالبارى على قدر طاقة البشر فى السياسة باستعمال مكارم الشريعة . ومكارم الشريعة هى : الحكمة ، والقيام بالعدالة بين الناس فى الحكم ، والاحسان والفضل

هذا الأسلوب من التفكير يختلف عن تفكير غلاة المتصوفة الذين أرادوا إذلال الجسم وطلب الفقر والاقتصار على السعى إلى الآخرة . وقد أشار الراغب الأصفهانى إليهم فى خلال كتابه اشارات كثيرة ، ونعى عليهم هذا الاتجاه ، وأنكر منهم هذا التفكير . ولقد أثر عن المسلمين بالباطل أنهم يزهدون فى الدنيا وينصرفون إلى الكسل ويدعون إلى التوكل . ولكننا نرى هنا أن الراغب يقرر أن لابد للإنسان من تحصيل مأكله وملبسه ومسكنه ، فليس له سبيل إلى ثباته فى الدنيا إلا بما يسد جوعته ، ويستر عورته ، ويقيه من الحر والبرد ، على أن يكون ذلك من الوجه المباح ، كما قال تعالى « إِنَّ لَكَ أَلا تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى » .

فأنت ترى أنه يجمع بين الدين والدنيا ، بل يجعل الدنيا سبيلا إلى الآخرة . وإنى أشارك المؤلف فى الرأى بأن الاقتصار على الدنيا وحدها لا يصلح غاية للإنسان . وأشاركه فى أن إهمال الدنيا والإسراف فى النظر إلى الدار الآخرة مما لا يتفق مع الطبيعة البشرية .

قال فى آخر الكتاب فى فصل عنوانه مراعاة أمور الدنيا والآخرة : إن الناس فى ذلك ثلاثة أصناف ، صنف منهم المنهمكون فى الدنيا بلا التفات منهم إلى العقبى . وصنف مخالفون لهم غاية المخالفة يراعون العقبى من غير التفات منهم إلى مصالح الدنيا . وصنف متوسط قد أعطوا الدارين حقهما ، وهذا الصنف هم عند الحكماء الأفضلون ؛ لأن بهم قوام أسباب الدنيا والآخرة ، ولأن أمورهم مبنية على الاعتدال الذى هو أشرف الأحوال .

فإذا كان الأمر كذلك فإن « التكسب فى الدنيا ، وإن كان معدوداً من المباحات لكنه واجب من وجه » . وأحب أن تنظر معى إلى النص السابق الذى

نقلته عن الراغب ، والذى يجعل التكسب واجباً ، فقد قيل إن عمر كان إذا نظر إلى ذى سيماء سأل أله حرفة ، فإذا قيل لا ، سقط من عينه . فإذا كان الراغب الأصفهانى يقرر مبدأ وجوب التكسب والعمل بالحرفة فقد سبق مذهب الشيوعية الحديث بقرون دون أن يدعى أنه أتى بمذهب جديد . والأمر كما ترى واضح لا يحتاج إلى مذهب يقرره ، وثورة تعينه على القيام . ولعل الذين ينادون بالاشتراكية ، والعدالة الاجتماعية ، وهذه الألوان الجديدة من المذاهب ينظرون فيما قال صاحبنا وسوف يجدون جديدهم قديماً .

٣

ما الإنسان ؟ أهو جسم فقط ، أم روح فقط ، أم جسم وروح ؟ أكبر الظن أن الراغب استقى كلامه فى النفس الإنسانية من أفلاطون مع إضافة بعض الحكم الإسلامية . وعنده « أن وجود النفس لايحتاج إلى أن يدل عليه لوضوح أمره » . وليست هـذه القضية فى مثل الوضوح الذى يؤكده . ومن المعلوم أن ديكارت الفيلسوف شك فى وجود كل شىء حتى وجود نفسه ، فقد يكون هناك شيطان ماكر يخدعه . وانتهى من الشك إلى إثبات وجود نفسه المفكرة فى جملته المشهورة « أنا أفكر ، إذاً أنا موجود » . أما فلاسفة المدرسة الانجليزية من أمثال هوبس وهيوم ، فقد شكوا فى وجود النفس ، وأنكروها إنكاراً ، وقالوا هى أسطورة جاءت إلينا مع علوم القدماء ، وليس لها سند من الوجود الواقعى . وانتهى علماء النفس المحدثين لا إلى إنكار النفس ولا إلى إثباتها بل قالوا هذه مسألة تدخل فى باب الفلسفة وليس للعلم أن يسأل عنها ، وإنما يبحث علم النفس فى السلوك الظاهر للإنسان .

ومن النظريات المشهورة المتصلة بالإنسان نظريته الثنائية التى تجعل الجسم فى ناحية ، والنفس فى ناحية أخرى . ومذهب ديكارت يؤكد هذه الثنائية تأكيداً شديداً . ويذهب الراغب الأصفهانى هذا المذهب ، فعنده أن ماهية الإنسان جسم ونفس ، بصر وبصيرة . وكما قال بعض الحكماء « قد ركب الله تعالى الإنسان تركيباً محسوساً معقولاً على هيئة العالم ، وأوجد فيه شبه كل ما هو موجود فى العالم » .

وقوى الإنسان هى الغذاء والحس والتخيل والنزوع والتفكير . والفكر أعلاها ، وله أفعال تختص به هى الروية والفكر والاعتبار والقياس والفراسة . والفكر استخراج الغوامض ، وبالاعتبار تحصل التجربة ، وبالقياس ارتباط المجهول بتوسط المعلوم ، والفراسة الاطلاع على الأسرار .

ولقد سبق أن شبه أفلاطون النفس الإنسانية بعربة يجرها جوادان ، أحدهما مطيع والآخر جموح ، ويقودها سائس . أما السائس فهو العقل ، وأما الجوادان فأحدهما القوة الشهوية ، والآخر القوة الغضبية . ويشبه الراغب الإنسان فى بدنه ، بمثل والٍ فى بلده ، وقواه وجوارحه بمنزلة صناع وعملة ، والعقل له بمنزلة مشير عالم ناصح ، والشهوة فيه كعبد سوء جالب للميرة ، والحمية له كصاحب الشرطة . والعبد الجالب للميرة خبيث ماكر ، يتمثل للوالى بصورة الناصح ، وفى نصحه ذنب العقرب ، ويعارض الوزير فى تدبيره . وكما أن الوالى فى مملكته متى استشار فى تدبيراته وزيره دون هذا العبد الخبيث ، وأدب صاحب الشرطة وجعله مؤتمراً لوزيره استقام أمر بلده ، فكذا النفس متى استعانت بالعقل فى التدبير ، وأدبت الحمية ، وسلّطته على الشهوة وقواها استتب أمرها .

ويرجح الراغب الأصفهانى إمكان تغيير الخلق ؛ فقد روى فى المأثور « حسنوا أخلاقكم » . وأن الله خلق الأشياء على ضربين أحدهما بالفعل ولم يجعل للعبد فيه عملا كالسماء والأرض . والثانى خلقه خلقة وجعل فيه قوة ترشح الإنسان لإكماله وتغيير حاله ، وإن لم ترشحه لتغيير ذاته . وهذه هى نظرية التطور نحو الكمال التى يتغنى بها المحدثون . وقد أشار إليها الراغب إشارة أخرى فى آخر الكتاب بمناسبة الأفعال وضروبها فقال عن السموات والأرض إن الله أبدعها إبداعاً « ولم يخلقها خلقة ناقصة فى ابتداء نشأتها ثم كملها شيئاً فشيئاً كالحيوان والإنسان والنبات » . ونحن لا ندعى أن هذه النظرية شبيهة كل الشبه بنظرية التطور الحديثة ، ولكن فيها ما يشعر بأن الأنواع لم تخلق من أول الأمر خلقة كاملة ، فهى إذاً ليست ثابتة أو مغلقة كما كان يعتقد المناطقة وعلى رأسهم أرسطو .

ومن الأسباب الدالة على إمكان تغيير الخلق أنه لو لم يكن كذلك لبطلت فائدة المواعظ والوصايا ، والوعد والوعيد ، والأمر والنهى ؛ ولما جوز العقل أن يقال للعبد لم فعلت ولم تركت . ثم إننا قد وجدنا فى بعض البهائم

هذا ممكناً ، فالوحشى قد ينتقل بالعادة إلى الناس ، والجامح إلى السلاسة .

غير أنه إذا كان فى الإمكان تغيير الخلق ، فللوراثة أثر فى الطباع تجعل تغييرها صعباً . وفى ذلك يقول إن « الأخلاق نتائج الأمزجة ، ومزاج الأب كثيراً ما يتأدى إلى الابن كالألوان والخلق والصور . ومن أجل تأديبها إليه قال صلى الله عليه وسلم « تخيَّروا لِنُطفِكم الأكْفاء » .

والخير ثلاثة : نافع ، وجميل ، ولذيذ . وسبيل الوصول إلى السعادة هو الجمع بين مختلف الفضائل ، خصوصاً الفضائل النفسية . والمال والأهل ، والعز ، وكرم العشيرة هى الأشياء النافعة فى بلوغ الفضيلة الحقيقية ، والسعادة الأخروية .

وبعد لا أريد أن ألخص لك جميع فصول الكتاب ، وأن أعلق على كل رأى جاء فيه ، ولكنى أقول إن المؤلف راقنى بحسن تفكيره ، ونظرته الواسعة إلى المجتمع الإنسانى ، حتى لتجد فيه بدايات للبحث فى الصناعات وأقسامها كما فعل ابن خلدون من بعد ، ولأنه لم يكن مسرفاً فى اتخاذ جانب واحد من جوانب الحياة بل تحرّى الحكمة والعدالة ، فجاء كتابه سفراً يصح أن يكون من الأسفار الخالدة فى الأخلاق .

احمد فؤاد الاهوانى